

ملاحم من الحياة العامة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني

د/بوسليم صالح .جامعة غرداية

د/الزين محمد .جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

This contribution shows the features of public life in Algeria through books trips, which codified a group of Moroccans travelers who have crossed Algeria on their way to the Orient during the Ottoman period, and pave the way for it is better to talk briefly about the travel literature and the most important religious and scientific motives.

Keywords:

The trip - books trips - French ships - Ottoman period - religious.

تعرض هذه المساهمة ملاحم من الحياة العامة بالجزائر من خلال كتب الرحلات1، التي دونتها ثلّة من الرّحّالين المغاربة الذين عبروا الجزائر في طريقهم إلى المشرق خلال العهد العثماني، وللتمهيد لذلك يحسن أن نتحدث بإيجاز عن أدب الرحلات وأهم دوافعها الدينية والعلمية.

- الرحلة بين الدوافع الدينية والعلمية.

وجدير بالذكر أن الرحلة كانت معهودة في تاريخ أجدادنا الذين يقدرون ما يُجنى منها من الفوائد المتنوعة، ويتحملون في سبيل تحقيقها وعشاء

السفر ومشاقه ومتطلباته في ظروف لم تعرف بعد وسائل النقل المتطورة، وأسباب الراحة المستخدمة.

وقد تعدد مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، وهي بالجملة تعني الانتقال من مكان لآخر لتحقيق هدف معين، سواء كان ماديا أو معنويا2 وقد تنوعت الدوافع التي كانت تحدو بهم إلى القيام برحلاتهم، فكان منها الحرص على لقاء الشيوخ والاستفادة منهم واستجازتهم والرواية عنهم، وقد أكد العلامة ابن خلدون (ت808هـ/1406م) ذلك في مقدمته الشهيرة في الفصل الثالث والثلاثون) أن الرحلة في طلب العلم و لقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم،) حيث قال: (والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم و ما يتتخلون به من المذاهب و الفضائل، تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، و تارة محاكاة و تلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً و أقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب المعارف والفوائد والكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال)3.

ومن الدوافع التي تُحفز إلى الرحلة، أداء مناسك الحج و العمرة و زيارة الأماكن المقدسة، و زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي لاشك فرصة لاحتكاك العلماء المسلمين بغيرهم الوافدين من كل العواصم العربية والإسلامية. ويعتتم الفرصة أصحاب الرحلات؛ لتدوين ملاحظاتهم وانطباعاتهم في مؤلفاتهم التي تُعرف بالرحلات الحجازية4.

وقد تجاوب المغاربة مع هذا الركن من الدين و تحمّسوا له، فكانت أمنية الواحد منهم أن تحمل تكاليف الشرع الإسلامي، أن يقوم بهذه الرحلة الدينية العلمية، و لا يزال هذا الشعور فيهم قائماً.

و كثيرا ما دونّ أعلامنا رحلاتهم , و ضمّنوها مشاهداتهم وسجّلوا بها ما صادفهم في طريقهم وفي المراكز التي أقاموا بها، كما أودعوا أسماء المشيخة الذين لاقوهم و أخذوا عنهم أو الصلحاء من الأولياء الذين زاروا أضرحتهم ، و حتى أسماء الكتب التي قرأوها و درسوها , و هم بذلك يضعون حلقات جديدة في سلاسل السند و يحافظون على السنن الحميدة في نقل المعرفة , هذه السنن التي كانت من مميزات حضارتنا. و لأغلب هؤلاء المدونين للرحلات حرص على تسجيل ذكريات حبيبة إلى نفوسهم، ذكريات السفر إلى بيت الله الحرام و مشاهداتهم في طريقه , وما حصل لهم خلاله. وهكذا أثري أدب الرحلات وتعددت كتبه؛ ذات الأساليب المختلفة , والمادة الغنية بالإفادات والمعلومات.

و نصل إلى القول، بأن تاريخ الرحلة قديم قديم الإنسانيّة ذاتها، ولعلّ البحث عن القوت كان سبباً رئيساً في حركة هجرة الأفراد والجماعات في العصور القديمة من تاريخ الإنسانيّة؛ بهدف البحث عن الدفء والملاذ الآمن وتوفير الاحتياجات، ولعلّ الدافعين الاقتصادي والعسكري، قد امتزجا بمجاذف الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديده.

وقد أصبحت كتب الرحالين مصدراً هاماً للباحثين والمؤرخين ثمّدهم بما يُفيد في المجالات الجغرافية والاجتماعية, ويُعرفهم ببعض العادات, ويصف لهم الحياة العلمية والعلاقات بين العلماء, ويُعرفهم ببعض المظاهر التي يغفلها المؤرخون في كثير من الأحيان. و بحكم الموقع الجغرافي للجزائر، الذي جعل منها جسراً للتواصل بين المشرق و المغرب الإسلاميين، فقد حظيت باهتمام أصحاب الرحلات، حيث دونّوا عنها ما عرفنا بمسالكها ومراكزها و منازل الحجيج فيها, ونشاطهم التجاري فيها أيضا, وما رسم لنا

من ملامح عن إقامتهم بها في طريق الذهاب والإياب، واجتماع ركبهم المشرق بركبهم المغرب فيه، فالرحلات التي وصف أصحابها مدناً وقرى جزائرية وعرضوا مظاهر من حياة سكانها كثيرة.

- الجزائر في كتب الرحلات المغربية قبل العهد العثماني:

ومن الرحالين المغاربة الذين تحدثوا عن الجزائر ووصفوها قبل العهد العثماني، يمكن أن نذكر أبا عبد الله ابن رشيد السبتي (ت 721هـ/ 1320-1321) 5، وأبا عبد الله العبدري، (ت بعد 688هـ/ 1289م) 6، وابن بطوطة (ت 779هـ/ 1377م) 7 والحسن الوزان الفاسي (ت نحو 957هـ/ نحو 1550م) 8، وأبا عبد الله القيسي الشهير بابن مليح السراج 9 وتمكّنا من خلال تفحص رحلة ابن رشيد السبتي؛ معرفة جوانب عدّة تتعلق بالحياة الثقافية بالجزائر، سواء من حيث المستوى العلمي والثقافي، أو طبيعة المؤسسات الثقافية، باعتبار أن رحلة السبتي تتدرج ضمن الرحلات الفهرسية التي تتوخى لقاء المشايخ والأخذ عنهم، والحصول على علو السند، والإجازات العلمية، أما باقي الرحلات المغربية فاهتمت في الغالب بالكثير من المعلومات العامة عن المغرب الأوسط (الجزائر)، كوصف المدن والمناطق الآهلة بالسكان، والفيافي المقفرة، وكالحديث عن العادات والتقاليد، والمستوى الحضاري والعلمي، وكذكر الزوايا والمزارات، والطرق الصوفية والأوراد والوظائف، وما إلى ذلك. 10

ومن البديهي، أن كل رحلة يُركّز على الجانب الذي يشد انتباهه واهتمامه، والذي هو قريب إلى نفسه؛ باعتبار أن نصوص الرحلة ككتب الجغرافيا والمسالك والممالك وتقويم البلدان، تحاول في مجرد وموضوعية الإمام بالمعلومات المرتبطة بالأحوال الطبيعية والبشرية والاقتصادية، ويلمس

القارئ من خلال نصوص الرحلة ذاتية الرحالة ونفسيته ، من خلال المعلومات التي تسوقها تلك النصوص عن البلدان التي يكون قد مرّ بها. ومن خلال تفحص الرحلات المشار إليها آنفاً، يمكن الخروج بملاحظتين:

أولاهما: كثرة المغاربة الوافدين على الجزائر، إما باعتبارها مرحلة مهمة في مواصلة الرحلة إلى المشرق، أو اتخاذها مستقراً ومقاماً، ومن هنا نجد الكثير من علماء الجزائر يجلسون إلى دروس هؤلاء الوافدين فيحصلون منهم على علو السند والإجازة. كما يمكن رصد الملاحظة الثانية، وهي أن للكتاب المغربي حضوراً في مجالس الدرس، وفي الانتاجات العلمية، مما يمكن اعتباره من أهم مصادر الثقافة والعلم بالجزائر.

- الجزائر في كتابات الرحالين المغاربة خلال العهد العثماني:

تهتم كتب الرحلات بالوصف أكثر من الرواية، وتجعل الباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري يهتم بدراساتها نظراً لما تمتاز به من دقة وتركيز في كثير من الجوانب، ومن أشهر كتب الرحلات المعاصرة لهذه الفترة، والتي يأتي فيها ذكر بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، أربعة كتب يعرفها الباحثون الذين ينصب اهتمامهم على تاريخ بلاد المغرب، خلال مرحلة العصر الحديث. وقبل الوقوف مع ما دوّنه الرحالين المغاربة عن رحلاتهم بالجزائر في ذهابهم إلى الحجاز وإيابهم منه، يحسن أن نشير إلى تلك الرحلة المعاكسة، أي قيام الكثير من الجزائريين؛ باختلاف توجهاتهم وميولهم وأهدافهم العلمية والصوفية بالرحلة إلى المناطق المختلفة من المغرب عامة، ومدينة فاس على الخصوص كما يبدو من كتب التراجع.

ويجدر القول، بأن أغلب هذه الرحلات - التي نحن بصدد التطرق إليها - قد تمّت دراسة جوانب منها وتحقيقها ونشرها. وقد عمل بعض

الباحثين المحققين على استخراج النصوص المتعلقة بالجزائر من تلك الرحلات، ومن الأعمال العلمية التي كان لها فضل السبق في هذا الصدد؛ البحث الذي قدّمه مؤرخ البحرية الجزائرية الباحث مولاي بالحميسي¹¹ رحمة الله عليه. ورغم نشر النصوص المتعلقة بالجزائر، فإن نصوصاً كثيرة من نوعها مازالت تنتظر اهتمام الدارسين والباحثين؛ لنفض الغبار عنها والاستفادة منها. واخترت منها لهذا البحث، ما انتقاه أستاذنا المرحوم، للتركيز على بعض الجوانب أو الملامح كما أحببنا تسميتها، وتتمثل في نصوص أربع رحلات، سنجتزئ منها، وهي كالآتي:

أولاً: رحلة التمقروتي¹² (ت1594-1595م):

والتي تُعرف بـ (النفحة المسكية إلى السفارة التركية)، وقد تضمّنت معلومات عدّة عن مختلف أحوال الجزائر أثناء ذهابه وإيابه بالمدن الجزائرية الساحلية. وقد قدّم لنا صورة عن الحياة الثقافية في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي، أثناء سفره إلى إسطنبول في عام 997 هـ/ 1589م، فقال عن الأحوال الثقافية بمدينة الجزائر: .. وطلبة العلم فيها لا بأس، إلا أن حب الدنيا وإثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيراً. والكتب أوجد من غيرها من بلاد إفريقية، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيراً (13). ومن خلال استقراء هذا النص، يفهم من كلام التمقروتي، أنه على الرغم من ارتفاع عدد الطلبة، وكثرة الكتب في مدينة الجزائر، إلا أن الحياة الثقافية على ما يبدو كانت مضطربة، لأنها قد تأثرت بالأوضاع السائدة آنذاك، ممّا جعل أهل الثقافة ينصرفون عنها وينشغلون عنها بأمور أخرى.

وأفاض التيمقروتي في الحديث عن تاريخ مدينة بجاية الزاهر الحافل بالعلماء والصلحاء، وأبدى تحسُّره لما آلت إليه بجاية بسبب الاحتلال الإسباني، إذ هي "الآن خرابٌ هدمها النصارى... لم يبقَ بها إلا دياراً قلائل على طرف البحر، وقلعةٌ صغيرةٌ تُسمى باللؤلؤة، ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو14".

وفي طريق العودة من اسطنبول، أمضى التيمقروتي شهرين في مدينة الجزائر، فأعجب بنظام أسواقها، ووفرة سلعها، وكثرة السفن في مرساها، كما أعجب ببسالة رياستها وجراتهم، حيث يقول: (مرساها عامرٌ بالسفن، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير، وأعظم هيئة وأكثر رعباً في قلوب العدو، فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد أفريقيا وأعمار، وأكثر تجاراً وفضلاً، وأنفذ أسواقاً وأوجه سلعةً ومتاعاً، حتى أنهم يسمونها اسطنبول الصغرى)15. ولاحظ التيمقروتي إقبال الأهالي على طلب العلم واقتناء الكتب، فقال "والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد أفريقيا، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيراً.16)

ثانياً: رحلة أبي سالم العياشي (ت1090هـ/1679م)17:

الموسومة بـ(ماء الموائد)، وهي تدرج ضمن الرحلات الحجازية 18، وتتضمن إفادات نافعة عن الجزائر، ووصف أسواقها ومياهاها و مسالكها بالصحراء الجزائرية ومنازل الحجيج بها، وقد كتب ذلك في طريقه إلى الحج، وأثناء عودته إلى المغرب الأقصى مرورا بالجزائر.

وقدّم لنا صورة عن بعض الحواضر الصحراوية بالجنوب الجزائري سواء ما تعلّق بالحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، حيث صورّ لنا في

رحلته مدينة بسكرة وهو عائد في طريقه من الحج عن طريق تونس، وتحديدًا من مدينة توزر، حيث التقى ببعض مشايخها؛ كسيدي أحمد بن عبد العاطي، الذي أدخله داره وأكرمه و أراه الكثير مما تكتنزه مكتبته من كتب ومخطوط، وهناك التقى بالكثير من علماء خنقة سيدي ناجي بسكرة حاليًا.

ويُستشف من نصوص رحلة العياشي أن صحراء الجزائر كانت تخضع لحكم الجماعة، أو ما يُعرف بحكم الأمراء أو الإمارات المحلية، وكانت صحراء الجزائر حينها تعج بقوافل التجارة العابرة للصحراء، مما يعكس حركية الحياة الاقتصادية بين شمال بلدان المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. كما شاهد العياشي انتشار الزوايا العلمية والصوفية ومقامات وأضرحة الأولياء الصالحين، وعُرفت بعض المدن الواقعة على طريق القوافل التجارية الصحراوية باسم المدينة القصر أو الزاوية، ناهيك عن انتشار أضرحة العلماء والصلحاء، مثل عريان الرأس بتسايت (بواحات توات)، وأبي الفضل والنبى خالد (بسكرة)، وقد أصبحت مزارات كبرى¹⁹.

وأثناء عودته من الحج صادف ذلك اجتياح مدينة الجزائر عام 1621م عدّة أوبئة لم تنج منها المناطق الجنوبية للبلاد. وهذا ما أكدّه العياشي الذي توقف بمدينة بسكرة في عام 1650م، وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى، حيث قال: "ولما رجعت من الحجاز في سنة ستين، وجدته (سيدي بوطيب الناصري)، قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة. وكان وباء مفرطاً، مات به في بسكرة على ما قيل لنا نحو سبعين ألف نفس، وقد دخلنا المدينة عقبه، فوجدنا أكثر حوماتها خالية، ومساجدها دائرة"²⁰. وتكمن القيمة العلمية لرحلة العياشي؛ في كونها احتوت على الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية

والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، مما لا يدونه غير الرحلة الملاحظ المدقق في غالب الأحيان، نتيجة اتصاله المباشر بالطبيعة، وبالحياء أثناء رحلته21. ويمكن القول، بأن الرحلة العياشية كانت نموذجاً بارزاً خاصة عندما استوقفته بعض لطائف الفتاوى المحلية(النوازل)، وكذا بعض الغرائب التي صادفته، وضمن كل ذلك في نصوص رحلته، ولم يفوت أن يُعلق عليها، فقد كان العياشي بحق قد كذب ما قبله وأعجز ما بعده.

ثالثاً: رحلة ابن زاكور الفاسي 22 (ت1120هـ/ 1708م):

وتسمى رحلته: (نشر أزاهير البساتين فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان)23، وقد حلّ بالجزائر عن طريق البحر في حدود سنة 1093هـ/ 1683م، للالتقاء بعلمائها والاستفادة من دروسهم واستجازتهم في أغلب مؤلفاتهم ومروياتهم24.

وتعكس هذه الرحلة أبرز مظاهر التواصل والتعاون الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى، حيث قدّم لنا وصفاً لمدينة الجزائر وعلمائها الذين قال عنهم: (غُررٌ أعلام، ينجلي بهم الإظلام، وشموس أئمة، تنفج بهم كل غمة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة، من رجال كالجبال وأحبار كالأقمار طلوعوا في بروج سعوها بُدوراً ألبسوها رواءً ونوراً، فاهتديتُ بأنوارهم السنية، إلى قطف ما راق من أنوارهم الجنية، ورتعتُ في رياض آدابهم فتمتعتُ، ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت..25).

ولعل هذا الإقرار من صاحب الرحلة (ابن زاكور الفاسي المغربي) دلالة واضحة على المستوى العلمي العالي لدى أشياخه الذين تتلمذ على أيديهم، وقد ضمن رحلته العلمية نص الإجازة26 التي منحت له من قبل شيخة أبو حفص عمر بن محمد بن عبد المومن المانجلاتي (ت1104هـ/ 1693 م).

وعموما، تندرج هذه الرحلة ضمن الرحلة في طلب العلم، وهو ما تميز به أيضا العلماء والمثقفون الجزائريون عامة ، بغية الاستزادة في طلب العلم وإثراء المعارف، وتنويع المصادر، حرصا منهم أيضا على توسيع آفاقهم العلمية والمعرفية ، وقد احتوت إجازة علماء الجزائر وتطوان لابن زاكور الفاسي المغربي ، على ثلاثة وعشرون ورقة³.

ويندرج كتاب (رحلة ابن زاكور الفاسي) ، ضمن ما يعرف بكتب: (فهرسة الرحلة)، فهي فهرسة تكتب في شكل رحلة، يسجل المؤلف مشاهداته أثناء الرحلة، ويثبت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيهم، وما استفاد في مجالسهم من علوم ومرويات، مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق والأماكن التي يمر بها، وذكر للشيوخ الذين لقيهم، ومجمل ما استفاد من رواياتهم ونصوص إجازاتهم.

ويُعد بحق كتاب(رحلة ابن زاكور الفاسي)،من أهم المصادر التي غطت فترة من أزهى عصور العهد العثماني بالجزائر؛ فالأخبار التي ذكرها في رحلته عن أحوال الجزائر علمائها ، أمثال أبي الشيخ حفص عمر المانجلاتي الجزائري، وأبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري، وأبي عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري، وأبي عبد الله ابن خليفة، أصبحت مصدرا لمن أتى بعده من أصحاب كتب التراجم والسير؛ كمحمد بن أبي القاسم الديسي بن إبراهيم المشهور بلقب الحفناوي؛ صاحب كتاب (تعريف الخلف برجال السلف) وغيره .

رابعا: رحلة أبو القاسم الزياني (ت1249هـ / 1833م).

هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الزياني، رحالة وأديب ووزير مغربي، من قبيلة زيان الصنهاجية نواحي فاس، ولد سنة 1147هـ/ 1743م، درس في القرويين، اتصل بالبلاط الملكي سنة 1169هـ/ 1759م،

تقلد الولاية على وجدة وتازة ومكناس وطنجة وغيرها27. لجأ بعد ذلك إلى المغرب الأوسط (الجزائر) بعد أن أعيته الولاية، فاستراح منها ، ونزل ضيفا بمدينة وهران على الباى محمد الكبير(1779 م - 1797 م) 28. وتعرف رحلة الزباني باسم: (الترجمانة الكبرى في إخبار المعمور برا وبحرا29)، وقد جمع فيها بين رحلات؛ إحداها رحلة سفارية والأخيراتان رحلتان شخصيتان. أما الرحلة الأولى، فكانت في أيام السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل العلوي (ت1169هـ/1759م)، حيث توجه فيها إلى حج بيت الله الحرام مع والده، وقضى فيها ما ينيف على ستين.

ويذكر المؤرخ المرحوم مولاي بلحميسي، أنه في طريق العودة مرّ بمدينة ليفورن بايطاليا التي مكث بها أربعة أشهر ينتظر مركبا ، ثم أرغم هو وأهله على السفر براً ماراً بمرسيليا وبرشلونة، إلى أن دخل المغرب30. ولم يكن لهذه الرحلة أثر فيما سجله في كتابه من حيث دراسة المسالك والممالك، ولا من حيث الاهتمامات العلمية العامة.

أما رحلته الثانية، فكانت في سنة 1200هـ/1786م ، حيث عيّن لسفارة اسطنبول، وهي إحدى الرحلات التي تضمّنّها كتابه الترجمانة الكبرى، وهي رحلة سفارية تدخل ؛ تدرج في إطار الرحلات الدبلوماسية31 وقد وصف الزباني مدينة وهران، حيث قدّم لمحة بسيطة عن تاريخها من فترة ما قبل دخول الإسلام إليها في عهد الرومان إلى تاريخ ضمّها من قبل الأتراك العثمانيين في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني32

كما قدم لنا وصفا عن الحياة الثقافية بمدينة تلمسان , وهنا...كان له فرصة أن أيضا اطلع على كتب عدّة بعدما نزل جوار أبي مدين بالعباد، وانهاه عليه طلبة المدينة والمدينة وفقهاؤها للأنس والمذاكرة، والمسامرة والمحاضرة، وأطلعوه علة تاريخ المدينة وأحوازها وغيرها من الأقاليم العربية والإسلامية. كما

أطلعته إمام مسجد العباد على كتاب (فتوح البلدان) للبلاذري (ت 279 هـ/892م)، وتاريخ العقباني (ت811هـ/1409م)، وكتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق، وقد ذكر أن بعضها أقتني من مصر، و بعضا من تأليف علماء المدينة.

ومن الكتب التي اطلع عليها وذكرها في رحلته كتاب (واسطة السلوك في سياسة الملوك) لأبي هو موسى الزباني... إلخ. ولم يغفل أن يُعلّق على مستوى الطلاب المتدني، وهو ما دفعه للإقامة بها مدة سنة ونصف للإفادة والاستفادة. وأطنب بعدها في الحديث عن تاريخ المدينة.

وإذا كانت مدينة الجزائر قد تعافت من الوباء الذي ذكره العياشي، نجد أن مدينة تلمسان قد تضررت به. وهذا ما لاحظته الزباني المغربي، أثناء مروره بالمدن الجزائرية في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، إذ قال: (ثم بعد إقامتنا بها (تلمسان)، سنة ونصف، خرجنا منها إلى مدينة الجزائر، فراراً من الوباء الذي حلّ بها، وكان عاما في العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلاً، إلا وجدنا أهلها يدفنون موتاهم.33) وأثناء إقامته بمدينة قسنطينة التقى ببعض علمائها وصلحائها، ولعل من أبرزهم الفقيه العلامة الصوفي أبي الحسن علي بن مسعود الونيسي، والفقيه القاضي أبو عبد الله سيدي الحفصي العلمي، والفقيه العلامة سيدي أبو القاسم المحتالي، والعلامة سيدي أحمد بن المبارك العلمي، والفقيه الأديب الكاتب سيدي محمد المجاري الخوجة، وقد أثنى عليهم جميعاً.

ولاشك أن هذه الرحلة، هي من أهم المصادر التي تُعين الباحث على تتبع مظاهر الحياة الثقافية ببعض الحواضر الجزائرية عن كثب، حيث نجد أن صاحب الرحلة كان يبدي توجّهه الثقافي وآراءه العامة في مختلف المشاكل، وتدلل هذه الرحلة في الوقت ذاته على ما لصاحب الترجمة الكبرى من

مشاركة عملية في تسجيل كثير من الملاحظات حول التاريخ العلمي وحول التطور الفكري والعقائدي في الجزائر وغيرها من الأقاليم التي زارها .
 هذه أربع رحلات ، تمكنا في بداية الأمر من التعرف والاطلاع عليها، من خلال كتاب المؤرخ المرحوم مولاي بلحميسي الموسوم بـ: (الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني) ، ثم تمكنا رويداً رويداً من الاطلاع على نصوصها في مظانها الأساسية.

وقد مرّ أصحابها بالجزائر وتحدّثوا عنها و رسموا لنا ملامح من حياتها ووصفاً لمعلمها، وعرفونا ببعض علمائها وأعلامها . وقد تكرّرت في هذه الرحلات عدّة أشياء، ودلّتنا على وحدة مشاعر مؤلفيها وسُمُوها، ممّا خفّف وطأة وعناء السفر و مشتقاته. كما احتوت نصوص هذه الرحلات على معلومات متفاوتة عن موضوع بحثنا، بحكم حجمها المتباين، ومكانة أصحابها العلمية المتفاوتة، لكنّها جميعاً تُجسّد التعلّق بالدين الإسلامي، الذي ترجمته الرغبة في أداء مناسك الحج وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والتردد على أولياء الله الصالحين الذين قضوا نحبهم، أو الأحياء منهم، بالزيارة والاتصال المباشر، أو بالزيارة عن بُعد حسب الحال والمقام.

وكان أصحاب الرحلات يُنوّهون ما كانوا يلقون من أهل الجزائر من حسن القبول، و يحذرون من غدر بعض الأعراب في الطريق، ويرشدون إلى مواطن الماء، و إلى الأسواق التي يتوفر فيها ما يحتاجه الحجيج. و ممّا استفدناه من هذه الرحلات، أن الجزائر كانت تجمع وفود الحجيج المشرقين القادمين من نواحي المغرب و مختلف بلدانه، و العائدين من البقاع المقدسة ميمّمين مواطنهم في ربوع المغرب الأقصى. وهم جميعاً في وجهتهم يقبلون على اقتناء زادهم وتوفير كل ما يحتاجونه في سفرهم، وذلك باعث لازدهار

الحركة التجارية و نفاق بعض الأسواق الجزائرية، ومحرك لنشاط اقتصادي في هذا الموسم.

وكانت الرحلة لأداء فريضة الحج فرصة لاحتكاك العلماء المسلمين المتوافدين، إذا كان يحدث هناك تبادل ثقافي و علمي فيما بينهم. وهكذا تتيح الرحلات تواصلًا بين إخوة في دين الله تناءت ديارهم وتباعدت مواطنهم، فحقق الحج تعارفهم و تعاونهم و دعم أواصر المحبة بينهم، ومدّ أسباب التضامن والتضامن بينهم.

الإحالات:

1. الرحلات هي جمع كلمة (رحلة)، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن الرحلة تعني (الترحيل والرحال ، يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورحل رحول وقوم رحل : أي يرتحلون كثيراً، ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له). وورد لفظ رحلة عند ابن منظور بمعنى الانتقال من مكان لآخر" والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة، والرحلة اسم للارتحال للمسير" والرحلة بالضمّ الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، كما تعني السفرة الواحدة" الرحلة السفرة الواحدة". ينظر: أبو الفضل جمال الدين المعروف بابن منظور : لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، المجلد 03، دار المعارف القاهرة (د.ت)، ج18، ص1609.
2. عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام : أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1 ، القاهرة، 1992 م، ص 05.
3. عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من كتاب العبر...، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، (د.ت)، ص 542-541.
4. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م، ج1، ص177. ولم يقتصر التأليف في الرحلة الحجازية ، على المغاربة والعرب المشاركة ، بل ألف علماء شعوب إسلامية كثيرة في هذا النوع من الكتابة، نذكر منهم بعض الأتراك مثل إيليا جلبي (حجة عام 1631م)، ويوسف نابي (حجة سنة 1678م)، وعبد الرحمن حبري، ومحمد أديب الذي حج سنة 1779م)،
5. يراجع :بنحادة عبد الرحيم: العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط1/ 1429هـ-2008م، ص ص 245 - 250.

6. رحلة ابن رشيد الفهري السبتي (ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهية إلى الحرمين مكة و طيبة) المعروفة ب: رحلة ابن رشيد السبتي (ت 721 هـ) الجزء الثاني تحقيق: الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، طبعة الدار التونسية للنشر، 1402 هـ - 1982 م. كما قام الدكتور أحمد حدادي بدراستها وتحليلها، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1424هـ / 2003م.
7. يُعد محمد العبدري الحاحي من أهم الرحالة المغاربة في القرن السابع الهجري، وهو معاصر لابن رُشيد السبتي، والتَّجِيبِي السبتي الرحال، وقد دَوَّن العبدري مشاهداته في رحلة جلييلة الفوائد، عظيمة القدر، هي (رحلة العبدري) أو "الرحلة المغربية"، وقد طبعت بالرباط سنة 1968 م
8. يراجع: ابن بطوطة محمد بن عبد الله: ثُحفة التُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف أيضاً باسم رحلة ابن بطوطة هو كتاب يصف رحلة ابن بطوطة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1384هـ / 1964م.
9. يراجع: الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.
10. محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي، الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، هو رحلة من مغربي من أهل مراکش. لا يعرف شيء من تاريخ ميلاده و لا وفاته إلا مخطوط رحلته الحجازية و المسماة أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم و الأعراب 1040-1042هـ / 1630-1633م، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب 1968م..
11. مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1981م، ص 12.
12. بلحميسي مولاي (ت 2009م)، من مواليد سنة 1930 بمدينة مازونة (ولاية غليزان حالياً)، وقد تتلمذ سنوات الاستعمار بالمدارس القرآنية كغيره من أبناء الجزائر آنذاك ليواصل دراساته بعد ذلك حتى حصوله على شهادة ليسانس في الآداب عام 1958م، واصل مشواره العلمي في فرنسا، حيث تحصل على شهادة دكتوراه دولة سنة 1986م عن جامعة "بورديو" بفرنسا، له العديد من المؤلفات العلمية، قام - رحمه الله - مشكوراً بانتقاء أربع شخصيات من المغرب الأقصى تحدثوا عن الجزائر بعد أن زاروها و أقاموا بها مدة، مكَّتهم من الكتابة عنها، وأضافوا إلى الدراية النزاهة و الإعجاب أحياناً. وضمَّن ذلك في كتابه المذكور آنفاً، والذي يحتوي على 206صفحة.

13. أبو علي بن محمد التيمقوتي المغربي ولد حوالي سنة 1560م للاستزادة ينظر: التيمقوتي علي بن محمد الجزولي: النفحة المسكية في السفارة التركية، طبعة حجرية (دون تاريخ)، ص 12-19-28 و ص 76-86.
14. المصدر نفسه، ص 28.
15. المصدر نفسه، ص 16.
16. التيمقوتي: المصدر نفسه، ص 139.
17. المصدر نفسه، ص 139.
18. العياشي: هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي، من أهل فاس، ونسبته إلى آيت عياش: قبيلة بربرية من أحواز سجلماسة، ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافيلالت في شهر شعبان 1037هـ / ماي 1628م. كان أبوه شيخ زاوية، وهو الذي أشرف على دراساته الأولى، ثم تلمذ على يد شيخه محمد بن الناصر في وادي درعة (جنوب المغرب)، ثم عاد إلى فاس؛ حيث أكمل تعلمه على يد مشايخ، مثل عبد الرحمان بن القاضي و عبد القادر الفاسي، الذي أجازته سنة 1063هـ / 1653م. انتقل إلى المشرق طلباً للعلم، المرة الأولى سنة 1059 هـ/ 1649م، و المرة الثانية سنة 1064هـ / 1653م و المرة الثالثة سنة 1073هـ/ 1661. توفي بالمغرب الأقصى سنة 1090هـ/ 1679م بسبب الطاعون.
19. ينظر ترجمته في: أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 2006م، ص 29. ينظر أيضا: الأعلام للزكلي: ج 4، ص 273
20. مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة، مرجع السابق ص 12.
21. مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 28 وما يليها.
22. المرجع نفسه، ص 102.
23. حسني محمود حسن: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط 1، دت، ص 16.
24. هو محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد، أبو عبد الله بن زاكور الفاسي، وكنيته: أبو عبد الله، ولقبه عرف بابن زاكور، ونسبته الفاسي نسبة لمدينة فاس. ينظر ترجمته في: محمد بن الطيب القادري: التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط 1، بيروت لبنان 1983م، 304. عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة الرسالة ودار الكتاب اللبناني، بيروت 1975م، ج 1، ص 313.

25. ينظر: العلامة الشيخ محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي: رحلة ابن زاكور الفاسي المسماة: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تحقيق: محمد ضيف ومحفوظ بوكراع، (طبعة خاصة)، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011م، 134 صفحة. وهي في الأصل تقع في حدود تسعة وستون (69) صفحة. مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 19.
26. المرجع نفسه، ص 19.
27. ابن زاكور الفاسي: المصدر السابق، ص 40-41.
28. الإجازة في الأصل من طرق نقل الحديث و تحمله، ولها أنواع مفصلة في كتب العلم، وقد تساهلوا فيها فيما بعد و توسعوا في استعمالها في سائر العلوم، وضعت مصداقيتها الأولى، ومنحت بالمراسلة دون لقاء ولا مداورة ولكنها ظلت تُعبر في الغالب عن كفاءة الحجاز للدخول في عداد العلماء، واحتفظت بعض الإجازات بقيمتها العلمية العالية.
- حول الإجازة ينظر: ابن الصلاح أبو عمر عثمان بن عبد الرحمان الشهرودي: علوم الحديث، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: نورالدين عتر، ط 02، المكتبة العلمية، المدينة المنورة 1972م، ص ص 134-146. صلاح الدين المنجد: إجازات السماع في المخطوطات القديمة، في مجلة معهد المخطوطات العربية، مج 01، القاهرة نوفمبر 1955م، ص ص 232-251. وهو بحث خاص بنوع معين من الإجازات العلمية.
29. ناصر الدين سعيدوني وبوعمران الشيخ وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، منشورات جامعة الجزائر، 1995م، ص 271.
30. مولاي بلحميسي: المرجع السابق، ص 21.
31. ينظر: الترجمة الكبرى هي رحلة إلى اسطنبول وفهرسة ومختصر جغرافية وموسوعة صغيرة، حققها عبد الكريم الفيلاي سنة 1387هـ / 1967م.
32. مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص 20.
33. المرجع نفسه، ص 11.
34. المرجع نفسه، ص 156.
35. المرجع نفسه، ص 168.